العربية فلسفة وحياة

للاستاذ احمد عبد الرحيم السايح

من شيوخ جامع الازهر (القاهرة)

لقد تفضلت مجلة اللسان العربي بنشر مقالنا الذي جعلنا عنوانه « العربية » فى عددها الرابع ، ويسرني جدا أن أتابع الحديث والكتابة عن اللغة العربية فانها — بلا مراء — اللغة الوحيدة التي فتحت صدرها لتراث الانسانية الخالد ، ومعارف البشرية كلها ، كما اتسعت لمقومات الامة الاسلامية التي شرقت بالحضارة وغربت ، برزت فى أواسط القرن السادس بغتة تتمتع بقوة بالغة اشدها ، فما عرف التاريخ لها طفولة ولا نموا ، وما بدت الا لتكون لسان التمدن فانطلقت من شبه الجزيرة العربية تنتقل الى الامصار القصية مفرداتها ، وخصائصها ، وبفضل حضارة الاسلام صارت ابعد اللغات مدى وأوسعها افقا ، وستظل العربية حية ما دام الاسلام حيا . فمن ذا الذي لا يعرف للقرآن فضله فى بقاء العربية حية ؟ ومن ذا الذي يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام ؟ من ذا الذي لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية ، وبأنها كانت ، ولا زالت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارة اليوم .

لقد اندثرت جميع أخواتها السامية من آرامية ، وكنعانية ، وكلدانية ، وسريانية ، وأشورية ، وعبرانية قديمة ، وغيرها ، فى حين بقيت هي على رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود ، وما فتئت تفيض بالقوة والحيوية والحياة .

انها الحصن المنيع الذي تحتمي فيه العروبة من طغيان العامية واللهجات المحلية . انها الرابطة النفسية التي تجمع بين أهل البلاد المتباعدة ، والصيغة الجميلة التي نودعها مكنونات العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة العربية وسعت مبادىء ومثلا وقيما سماوية لم تضق بها ، ولم تنطل عن احتمال اعبائها . بل فى ظل حضارة الاسلام مرنت وامتصت وتفاعلت ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها .

ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من أواسط آسيا الى جبال البرانس فى شمال اسبانيا ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات أن تثبت لها ، أو تحول بينها ، وبين سيادتها ، وقد يكون من أسباب ذلك أنها لغة القرآن الكريم ، وقد يكون من أسبابه قوتها وجمالها الفني . ومهما تكن الاسباب فانها أصبحت لغة قومية لامم وشعوب قد تختلف وتتباين فى اجناسها وأصل نشأتها ، ولكنها تأتلف وتتحد فى عروبتها فهي جميعا تنضوي تحت لوائها وتتلقن لسانها ، وتعب من قرآنها وشعرها وبيانها ، فتستطيع ان تعيش لها وبها ، وتحيى فيها حياتها المعنوية : الادبية والعقلية ، وهي ما تزال الى اليوم لغة شعوب الشرق العربي من الخليج الى المحيط الاطلسي ، تتوهج جذوتها ، وترسل ضوءها وشررها الى كل مكان حتى فى امريكا ، فقد تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء فى مجلاتهم وآثارهم الادبية .

وواضح أنها اجتازت آمادا واحقابا متطاولة من الزمن ، وقد الت بها خطوب كثيرة ، ولكنها وقفت فى طريقها كالصخرة فى مجرى السيل ، يلم بها ثم يزايلها ، وليس معنى ذلك أنها ظلت جامدة لا تتطور ، بل لقد تطورت أطوارا كثيرة بحكم ما التقت به من ثقافات ، وقد حولت اليها وصبت فيها ثقافات الفرس واليونان والهند ومصر واسبانيا اللاتينية ، فوسعتها ، وتمثلتها تمثلا منقطع النظير ، وكأنما

اصبحت نهرا كبيرا تتدافع اليه جداول شتى من الفكر والمعرفة ، وهو لا ينحرف ، ولا يغير وجهته ، بل يجري غزيرا زاخرا متدفقا مقتحما كل ما يصادفه من حواجز وسدود ، ولقد وحدت اللغة العربية بين الامم والشعوب ، فاذا هي جميعها عالم عربي واحد مهما تدانت او تباعدت ومهما شرقت او غربت(1)

نعم انها لغة عجيبة انضجها الزمن المتطاول في البقاع الشاسعة من الجزيرة واخرجتها الفطرة السليمة ، والاحساس المرهف ، والادراك النافذ ، لغة كاملة معجبة عجيبة ، تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد تتجلى معانيها في اجراس الالفاظ ، وتتمثل في نبرات الحروف ، كأنما كلماتها خطرات الضمير ، ونبضات القلوب ، ونبرات الحياة . فالمعاني المحسة والمعقولة مبينة في الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة ، فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه ، ادراكا للفرق الدقيق بينهما ، فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة ، وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه من الجسم ، واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صيغة دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه، وحاجبه وانفه وفمه واسنانه وغيرها بأسماء خاصة ، ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشا ، فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم ، أو تحس بها الكلمة نفسها فتعطي أوتاخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة ، فالكلمة الاصيلة لها اقوى الاصوات وهو الضم ، والاخريات لها الفتح والجر ، وما ارى هذا الا ضربا من الحياة في الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه .

واذا اشتملت اللغات على كلمات هي : مادتها . ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة ، فيها مادة ووزن ، فخذ المادة او اخلقها او استعرها من لغة اخرى ، ثم صبها في قالب من قوالب الاسماء والافعال وصورها بالقوالب أو الاوزان ، فمن سمع فاعلا أو مفعولا ادرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته له معنى يلازمه في المواد كلها ، وبهذا امتازت اللغة العربية واستبانت خصائصها ، حتى نفت عن نفسها كل كلمة اجنبية ما لم تخضع لاوزانها وقوانينها ، للاسماء اوزان ، وللافعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الاوزان فهو اجنبي، وبهذا بقيت على الدهر المتطاول خالصة نقية صحيحة قوية .

وقد امتحنت هذه اللغة : الحضارة الواسعة ، واختبرها التاريخ الطويل ، فلم تعجز ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم ، وثقفه من صناعة ، بل وسعت حضارة القرون المتطاولة ، والامم المختلفة غير كارهة ، ولا مكرهة ، وقد اراد الله لها أن تكون لغة كتابه وترجمان وحيه ، وبلاغ رسالته ، فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورا في كلمات وآيات ، وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب ، وما استقام له احساس وادراك .

وتقلب الزمن وتوالت المحن وثارت الفتن ، وهي ثابتة ناضرة رائعة ثبات قوانين ، وروعة كواكبه .

محيت لغات ، وبدلت لغات ، وحرفت لغات والعربية هي العربية ، لم تمح ولم تغير ولم تبدل . ما آية الخلود في هذا ؟

ولم تبق العربية لغة العرب وحدهم ، بل ثقفتها الامم الاخرى ، واولتها من العناية والحفاوة اكثر مما اولت لغاتها احيانا ، فصارت لغة العلوم والآداب للعرب ، وغير العرب ، حقبا طويلة ، ما بين اقصى المغرب واقصى المشرق ولا تزال لغة ادب وعلم في الامم الاسلامية غير العربية .

وقد حوت على مر العصور ادبا لا تحويه لغة اخرى ، ما بين الصين الى بحر الظلمات .

فالعربية بأهلها وموطنها وخصائصها وآدابها وتاريخها ، العربية بقرآنها خالدة باقية على الخطوب والعصور، لغة دين وعلم وادب وحضارة وانسانية(2)

ولقد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما لغتين عموميتين- لافكار دينية وآداب اجتماعية ، ومذاهب سياسية ، انتشرت بين أمم مختلفة ، هاتان اللغتان هما : اللغة اللاتينية . واللغة اليونانية .

لقد كانت اللاتينية تستعمل من (كمبانيا) في ايطاليا الجنوبية ، الى الجزر البريطانية ومن نهر الراين الى جبل الاطلس .

---

(1) انظر مقال : د/شوقي ضيف . مجلة العربي رقم 58 .
(2) انظر : كتاب (مهد العرب) للدكتور عبد الوهاب عزام . اقرأ رقم 040 القاهرة .

واستعملت اليونانية من اقاصي صقلية الى شاطىء دجلة ، ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة . لكن ما اضيق هذا الانتشار اذا ما قوبل بانتشار العربية التي امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء ، وجنوب آسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتر .

لقد امست اللاتينية واليونانية فى صف اللغات الضعيفة منذ هبطت مدنيتاهما فما الذي حفظ اللغة العربية حية رغم ما مر بها من محن وأهوال ؟

ان الذي كان باعثا على قيام الحضارة العربية الاسلامية ، هو هو الذي ما زال حافظ العربية الى اليوم هو القرآن الكريم ، والاسلام يرمي الى التوحيد توحيد الانسانية فى الاخاء الانساني ، وتوحيد البشرية فى الانتاج المادي ، وتوحيد المسلمين فى الحديث بالعربية . ولغة الاسلام : العربية .

وستظل العربية حية ما دام الاسلام حيا ، وستزداد قوة العربية كلما ازداد المسلمون تقدما وفلاحا ونجاحا .

خصائص اللغة العربية ومميزاتها :

وللغة العربية خصائص ومميزات ، بزت بها غيرها ، لا تدانيها فيها لغة من لغات العالم ، فانت تستطيع أن تصنع من كلماتها الخلاقة ومفرداتها المأنوسة قطعا تسحر الالباب ، وتأخذ بالافهام ، وتشحذ الهمم ، وتنبه العقول .

وقد اعتنت اللغة العربية بجمال الالفاظ وحسن هيئتها ، وذلك اهتماما منها بالمعنى حتى يقع القول من نفس السامع الموقع المرجو . الذي يهيىء له الحالة النفسية التي تحفزه الى الحركة واليقظة والعمل . والحق يقال أن العربية بهذا أصبحت من اكثر لغات العالم دلالة معنوية .

قال جورجي زيدان : « الفعل (قضى) معناه (حكم) والاصل فيه القطع الحسي ، والفعل (عقل) معناه (فهم) وهو مأخوذ من : عقل الناقة ، اي ربطها، والفعل (ادرك) الاصل فيه البلوغ الحسي ، فيقال فلان ادرك القطار اي لحقه ، والفعل (بلغ) وضع أصلا للدلالة على الوصول الحسي فى المكان والزمان، بل ان الاصل فى معنى (الفصاحة) قولهم : فصح اللبن ، اذا ذهبت رغوته ، ثم قيل : فصح بمعنى وضح ، و(الراي) صله من (رأى) اي شهد بعينه (3) .

وفى اللغة العربية صيغ وقوالب وابنية ، تدل على معان وصفات واحوال ، فما كان على (فعلان) دل على الحركة والاضطراب ، كالنزوان والغليان ، والضربان ، والهيجان ، وما كان على (فعلان) دل على صفات تقع من احوال كالعطشان والغرثان والشبعان والريان والغضبان ، وما كان على (افعل) دل على صفات بالالوان نحو : ابيض واحمر واسود واصفر واخضر ، وكذلك العيوب تكون على (فعل) نحو : ازرق واحول واعور واقرع واقطع واعرج واضيق ، وتكون الادواء على (فعال) : كالصداع والزكام والسعال والخناق والكباد ، والاصوات اكثرها على هذا : كالصراخ والنباح والضباع والرغاء والثغاء والخوار ، وفصل اخر منها على (فعيل) : كالضجيج ، والهرير والهدير والصهيل والنهيق والضغيب والزئير والنعيق والنعيب والخرير والصوير ، وحكايات الاصوات على (فعللة) : كالصرصرة والقرقرة والفرغرة ، واطعمة العرب على (فعيلة) : كالسخينة والعصيدة ، واللفيتة ، والنقيعة ، والعقيقة ، واكثر الادوية على (فعول) : كاللعوق ، والسعوط ، والوجود ، واللدود، والذرور ، والقطور ، واكثر العادات فى الاستكثار على (مفعال) نحو مطعان و مطعام ، ومضراب ومضياق ، ومكثار ، ومهذار ، وامراة معطار ، ومذكار ، ومئناث (4) .

وابنية الافعال عامل قوي من عوامل ثروة اللغة العربية . وقدرتها على الدلالة على فرق وظلال تنضاف الى المعنى الاصلي دون زيادة فى اللفظ وقد عقد الثعالبي فى فقه (اللغة وسر العربية) فصلا فى ابنية الافعال ، فقال : فى الاكثر الاغلب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله ــ عز ذكره ــ : « وغلقت الابواب » وقوله : «يذبحون ابناءكم» ، و(فعل) يكون بمعنى افعل نحو : خبر واخبر ، وكرم واكرم ، ونزل وانزل ، ويكون فعل بنية لا لمعنى ، نحو : كلم ، ويكون بمعنى نسب ، نحو (ظلمة بتشديد اللام) اذا نسبه الى الظلم .

(وافعل) يكون بمعنى فعل ، نحو : استقى وسقى ، (وفاعل) يكون بين اثنين نحو: ضاربه وبارزه، ويكون بمعنى (فعل) كقول الله عز وجل : « قاتلهم

(3) راجع كتاب (الفلسفة اللغوية) لجرجي زيدان .الطبعة الثالثة القاهرة ص 110 .
(4) انظر ص 552 ــ 554 من فقه اللغة للثعالبي ط المكتبة التجارية بالقاهرة .

الله » اي قتلهم ، (وتفاعل) يكون بين اثنين وبين الجماعة ، نحو : تجادلا ، وتناظرا ، ويكون من واحد نحو : تراءى له ، ويكون بمعنى أظهر ، نحو : تغافل وتجاهل ، اذا اظهر غفلة وجهلا ، (وتفعل) يكون بمعنى (فعل) نحو : تخلصه اذا خلصه . (واستفعل) يكون بمعنى التكلف ، نحو : استعظم اي تعظم ، ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب ، نحو : استطعم ويكون بمعنى صار ، نحو : استنوق الجمل (5) .

وشيء آخر يجعل اللغة العربية اكثر مرونة في الواقع من غيرها من اللغات الحية المعروفة ، وهو انها اكثر اللغات قبولا للاشتقاق ، والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة ان تؤدي معاني الحضارة الحديثة على اختلافها ، والاشتقاق في العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الاصلي وتلوينه ، اذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ومبالغة وتعدية ومطاوعة ، ومشاركة ، ومبادلة مما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الآرية مثلا ، الا بألفاظ خاصة ذات معان مستقلة ، ولا نزاع في ان منهج اللغة العربية الفريد في الاشتقاق ، قد زودها بذخيرة من المعاني لا يسهل اداؤها في الاخرى . وقد لاحظ السيوطي هذه الزيادة في المعنى المشترك حين عرف الاشتقاق بأنه « أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة وهيئة تركيب ، ليدل بالثانية على معنى الاصل بزيادة مفيدة ، لاجلها اختلفا هيئة او حروفا » وجلي ان هذه الطريقة في توليد الالفاظ بعضها من بعض تجعل من اللغة جسما حيا ، تتوالد اجزاؤه ، ويتصل بعضها ببعض ، بأواصر قوية واضحة ، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي كان لابد منها لو عدم الاشتقاق ، وان هذا الارتباط بين الفاظ العربية الذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة ، وهي الحروف او الاصوات الثلاثة وثبات قدر من المعنى سواء كان ماديا ظاهرا ، او مختفيا مستترا ، خصيصة عظيمة لهذه اللغة تشعر متعلمها بما بين الفاظها من صلات حية ، تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي ، وان طريقتها حيوية توليدية ، وليست آلية جامدة .

وهي تدل بالحركات على المعاني المختلفة ، من غير ان تكون تلك الحركات اثرا لمقطع او بقية من اداة فيكون ذلك في وسط الكلمة واولها وآخرها : فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل مكرم ، ومكرم ، وبين فعل المعلوم وفعل المجهول ، نحو : كتب وكتب ، وبين الفعل والمصدر ، في مثل : علم وعلم ، وبين الوصف والمصدر ، في مثل فرح وفرح ، وبين المفرد والجمع في مثل : اسد واسد (6) .

هذه العلامات الاعرابية اشارة الى معان يقصد اليها . فاللغة العربية اذن تجعل الصدارة للمعنى . ولا نعرف بين اللغات الكبرى لغة أصلح من لغتنا العربية لهذا الباب من ابواب الدراسة اللغوية ، لان مخارج حروفها مستوفاة متميزة (7) .

قال ابن جني : فكأن العرب انما تحلى الفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها ، عناية منها بالمعاني التي وراءها ، وتوصلا بها الى ادراك مطالبها ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا) فاذا كان رسول الله يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم ، التي جعلت مصائد واشراكا للقلوب ، وسببا وسلما الى تحصيل المطلوب ، عرف بذلك أن الالفاظ خدم للمعاني ، والمخدوم — لا شك — اشرف من الخادم (8) .

فاذا رأيت العرب قد اصلحوا الفاظها — اي العربية — وحسنوها ، وحموا حواشيها وهذبوها ، وصقلوا غروبها وأرهفوها ، فلا ترين أن العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه وتشريف ، ونظير ذلك ، وانما الوعاء وتحصينه ، وتزكيته وتقديسه ، وانما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعي عليه وجواره بما يعطر بنشره ، ولا يمر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ، ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه (9) .

وفي باب (اصلاح اللفظ) قال ابن جني : « اعلم انه لما كانت الالفاظ للمعاني أزمة وعليها أدلة واليها

---

(5) انظر ص 549 — 551 من فقه اللغة للثعالبي نفس الطبعة السابقة .
(6) انظر ص 47 — 49 من فلسفة اللغة العربية د. عثمان امين ، المكتبة الثقافية 144 ، القاهرة .
(7) من كتاب اشتات مجتمعات — عباس العقاد ص 49 — دار المعارف بمصر .
(8) الخصائص لابن جني ص 228 ج 1 مطبعة الهلال بمصر 1912 م .
(9) المرجع السابق ص 225

موصلة ، وعلى المراد منها محصلة ، عنيت العرب بها، فأولتها صالحا من تثقيفها واصلاحها (10) .

ويدلك على تمكن المعنى من انفسهم ، وتقدمه للفظ عندهم ، تقديمهم لحرف المعنى من أول الكلمة ، وذلك لقوة العناية به ، فقدموا دليله ليكون ذلك امارة لتمكنه عندهم ، وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة فى اول الفعل اذ كن دلائل على الفاعلين ، من هم ، وما هم ، وكم عدتهم ، نحو : افعل ، ونفعل، وتفعل ، ويفعل : فالمعاني اقوى عند العرب ، واكرم عليهم ، وافخم قدرا فى نفوسهم ، لهذا اصلحوا الالفاظ، وبالغوا فى تحبيرها ، وتحسينها ، لتكون المعاني ، اوقع فى السمع واذهب فى الدلالة على القصد .

ومن خصائص العربية التي تعرب عن قوتها وفاعليتها فى الحياة ، وتوثبها الى العلا والسمو : الحركية ، وكأن اللغة العربية بهذه الحركية تدفع بابنائها الى المجد دفعا وتغرس فيهم حب العمل والحركة ، فلا ينبغي أن تكون اللغة متحركة مرنة واهلها جامدون ساكنون .

قال العالم ابن جني : ان معنى قول اين وجدت ، وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض ، وتأخره عنه انما هو للخفوف والحركة ، وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل منها شىءوهي(قول)و(قلو)و(وقل)و(ولق)و(لقو)و(لوق) قول وهو القول : وذلك أن الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمذلان به . وهو بضد السكوت الذي هو داعية الى السكون . الا ترى ان الابتداء لما كان اخذا ، فى القول لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا ، ولما كان الانتهاء اخذا فى السكوت . لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكنا ، واما « كلم » فهذه ايضا حالها وذلك انها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة (11) .

وتأكيدا لهذا المعنى قال ابن جني « وذلك انا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القوة والشدة ، وتقاليب القول الستة على الاسراع والخفة (12) .

ارايت لغة تهيىء الحالة النفسية فى الانسانية ، وتحفز الهمم الى الوثوب والحركة ، وتشحذ النفوس الى الاصالة والابتكار والابداع مثل اللغة العربية ؟ ولعلنا نعرف ان هذا هو السر فى بلوغ المسلمين اوج العظمة والحضارة ، وقيادة الدنيا ، وذلك حينما كانوا عاملين بمبادىء تعاليم الاسلام .

قال الدكتور عثمان امين : اما عن الحركية فاللغات الغربية لا ترى مانعا من البدء بالحروف الساكنة، فاسم (افلاطون) فى جميع تلك اللغات مبدوء بحرفين ساكنين ، أما فى اللغة العربية ، فقد امتنع النطق بالحرف الساكن فى أول الكلمة ، ولذلك أضاف العرب الفا او همزة الى حروف اسم افلاطون ، كيما يتيسر النطق به تمشيا مع فلسفة اللغة العربية ، التي تمنع الناطق بها من النطق بالحروف الساكنة فى أول الكلام ، لان تلك الفلسفة تفترض أن كل قول اذا كان قولا جادا ، ينبغي أن يكون بمنزلة الفعل ، أو ان يهيىء قائله او سامعه للفعل المرتقب ، والفعل يقتضي الحركة ويستلزم الخفوف كما قال ابن جني ، واي قول لا يكون فيه حركية او تهيؤ للفعل فهو عبث أو لهو ، وفلسفة العربية تريد أن تنزه أهلها عن لغو الكلام (13) .

والحركية فى العربية حركية حياة خلاقة مبدعة، ذات عبقرية خاصة، وهي لاتكتفي بمسايرة التطورات المستحدثة ، كما تفعل بقية اللغات ، بل يجد الباحث المنصف فيها حركة بشرية فى تفاعلها ، فكأنها كائن يذهب ويجيء وتموج فيه العواطف والاحاسيس ، ومن ابرز الميزات فى العربية أن كلماتها تنعم بهذه الحياة وبهذه الحركية ، فى الحين الذي نجد الكلمات فى سائر اللغات ادوات جامدة ، لا يعرف فيها شىء من الحياة ، الا بعد أن تجتمع طائفة منها الى بعضها ، وتؤلف عبارة .

ان العربية فى عبقريتها ، لم تكتف بهذا المنطق الذي هو فى حد ذاته قاعدة بل عمدت الى اكثر من ذلك . وها هي ظاهرة من ظواهر حياتها وحركتها حتى فى الكلمات ، فهي تتساهل اشمل ما يكون التساهل حيال من يتكلمها ، كما يفعل الرجل الشهم ازاء صاحبه تماما ، خذ مثلا كلمة (غضروف) ان اجتماع الغين والضاد يثقل احيانا على اللفظ وتناسق الكلمات فى الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن

(10) نفس المصدر ص 217 .
(11) الخصائص لابن جني ج 1 ص 5 — 12 .
(12) الخصائص لابن جني ج 1 ص 527 .
(13) محاضرات جامعة الازهر — الموسم الثاني 1962 م

اخواتها فى العبارة ، وفى السرعة ، فماذا تفعل اللغة العربية لتتلافى هذا الامر ؟ انها تتساهل معك ، وتقول لك ، اذا لم تستطع أن تلفظ كلمة (غضروف) فالفظ كلمة (غرضوف) فانها هي نفسها .

ان اللغة العربية لا تتعنت الى الدرجة التي تشعر بالبغض لها ، بل هي تأخذك بالحسنى ، فاذا انت من نبالة عواطفها ، ومن شهامة اخلاقها اسير لا تكاد تملك من امرك شيئا . والحياة التي فيها حياة ذات مقاصد ، تريد أن يكون التعبير جميلا وتريد أن يمتد هدفها الى اكثر من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء ، فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتولد من نفسها كالطاقة الذرية سواء بسواء (14) .

وانتقل بالقارىء العربي الى خاصة اخرى من خصائص العربية . هذه الخاصية هي الاعراب والاعراب هو : الابانة عن المعاني بالالفاظ ولفظة اعراب مصدر من اعربت عن الشيء اذا أوضحت عنه يقال فلان معرب عن ما فى نفسه : اي مبين له ، وموضح عنه .

الا ترى انك اذا سمعت اكرم سعيد أباه ، وشكر سعيدا أبوه ، علمت برفع احدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول ولو كان الكلام شرجا واحدا لاستبهم احدهما من صاحبه .

واصل هذا كله قولهم « العرب » وذلك لما يعزى اليه من الفصاحة ، والاعراب والبيان . ومنه قولهم فى الحديث « الثيب تعرب عن نفسها » والمعرب صاحب الخيل العراب ، وعليه قول الشاعر :

ويصهل فى مثل جوف الطو
ي صهيلا تبين للمعرب

اي اذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم انه عربي (15).

فالاعراب فلسفته : الابانة عن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة للكلمة ، وعن صلات الكلمات بعضها ببعض ، ويمكن أن نقول : ان الاعراب دعوة الى الترابط والتآلف واعطاء كل ذي حق حقه دون ما لبس أو ابهام .

والعربية لغة وضوح وجلاء ، والاعراب احدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية . وفى اللغات الخالية من الاعراب يعتمد أهل اللغة على القرائن ، وعلى اضافة كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعاني ، ولكن الاتكال على القرائن ، وعلى اضافة بعض الكلمات ، ربما لا يطرد . فاوجبت لغة العرب التفريق بين الفاعل والمفعول بالاعراب والا وقع الابهام وبهذا الصدد يحكى ان رجلا دخل على امير المؤمنين علي — كرم الله وجهه — فقال له من غير اعراب : (قتل الناس عثمان) فقال له علي امير المؤمنين : بين الفاعل من المفعول رضن الله فاك وكذلك لا تستطيع التفرقة بين النفي والتعجب والاستفهام الا بالاعراب لان الصيغة فيها جميعا واحدة ، وحكاية أبي الاسود الدؤلي مع ابنته مشهورة ، اذ كانت تشاهد السماء ، وتعجب لمنظرها، فقالت : ما احسن (بضم النون) السماء فقال ابوها : نجومها فقالت : ما عن هذا اسأل ، وانما انا اعجب. فقال : لها اذن قولي : ما أحسن السماء . وافتحي فاك ، وهكذا وضع باب التعجب ، وباب الاستفهام فى العربية .

الاعراب اذن مطلب العقل فى اللغة ولذلك نرى ان الاعراب ارقى ما وصلت اليه اللغات فى الابانة والوضوح . وهذه المرتبة قد بلغتها العربية الفصحى ، ولا يشاركها فيه من اللغات القديمة الا اليونانية واللاتينية ، ولا يشاركها فيه من اللغات الحية الا الالمانية . أما اللغات الآرية الحديثة — وتشمل معظم لغات اوربا الحديثة — فقد خلت من الاعراب ، ولا مميز فيها بين الرفع والنصب والجر ، وانما يقوم مقامها الحاق ادوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر ، أو بتقديم الالفاظ وتأخيرها ، مما لا يخرج عن الوضع الخارجي ، فى المكان ، هذا فى حين ان اللغة العربية ، قد استلزمت من أول الامر ، أن يكون الفكر الواعي محددا للوضع الخارجي ، وأن يكون النظر الى المعنى : هو المبرر للتقديم والتأخير وتأكيد الاسناد وغير ذلك (16) .

ونحن نعني بالاعراب تغيير أواخر الكلم بتغيير العوامل عليها بالرفع والنصب والجر والسكون ، واللغات الحية فى العالم المتمدن الآن تعد بالعشرات ليس بينها من اللغات المعربة الا ثلاث : وهي العربية

---

(14) انظر مقال الياس قنصل — مجلة الاقلام المجلد الاول — بغداد .
(15) الخصائص ج 1 ص 22 — 24 .
(16) انظر : كتاب (فلسفة اللغة العربية) الدكتورعثمان امين المكتبة الثقافية عدد 144 القاهرة .

وابنتها الحبشية واللغة الالمانية (17) وقد اشار عبد الرحمن بن خلدون الى مكانة العرب من كلام العرب فقال : فان كلامهم — اي العرب — واسع ، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة . الا ترى ان قولهم زيد جاءني مغاير لقولهم : جاءني زيد ، من قبل أن المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم ؟ فمن قال : زيد جاءني ، أفاد أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند . وكذلك التعبير عن اجزاء الجملة ، بما يناسب المقام من موصول أو مبهم أو معرفة . وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم ، وان زيدا قائم ، وان زيدا لقائم ، متغايرة كلها فى الادلة وان استوت من طريق الاعراب ، فان الاول العاري عن التأكيد انما يفيد الخالي الذهن ، والثاني المؤكد يفيد المتردد ، والثالث يفيد المفكر ، فهي مختلفة (18) .

واذا كانت العربية عنيت بالاعراب توضيحا للمخاطب والسامع وراحة للمتكلم ، فحرصا منها على وقت السامع والمتكلم توخت التركيز فى المعنى والايجاز فى الجملة اقتدارا واختصارا وتوسعا وثقة بفهم المخاطب . قال الله تعالى : « كل من عليها فان » اي على الارض ، وقال عز وجل : « حتى توارت بالحجاب » يعني الشمس . وقال « كلا اذا بلغت التراقي » يعني الروح .

وقد تستعمل العربية حرفا واحدا يدل على معان كثيرة ويعبر عن اغراض متنوعة . مثال ذلك حرف (اللام) فمنه : لام التوكيد ، ولام الاستغاثة، ولام التعجب ، ولام الملك ، ولام السبب ، ولام الوقت ولام التخصيص ، ولام الامر ، ولام الجزاء ، ولام القسم ، على أن فى اللغة العربية مرونة وحسا موسيقيا يجعلانها لا تتردد فى أن تزيد أو تحذف ، حفظا للتوازن ، وايثارا له ، فالزيادة مثل : قوله تعالى « وتظنون بالله الظنونا » . « فاضلونا السبيلا» والحذف مثل : قوله تعالى : « والليل اذا يسر »

ولهذا كله قال صاحب العبقريات : « واللغة العربية فى طليعة اللغات المعبرة بين لغات العالم الشرقية او الغربية : فلا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتهم والفاظهم ، كما تتراءى لنا اطوار المجتمع العربي من مادة الفاظه ومفرداته فى اسلوب الواقع واسلوب المجاز (19) .

ولقد شهد للغة العربية كبار الباحثين والعلماء والمستشرقين ، من غير العرب . وكان هذا منهم اعرابا عن الحقيقة التي لا يسوغ انكارها ، ومرضاة للعلم فى ذاته .

قال : اغناطيوس كراتشكوفسكي : أول ما نلحظه من أول نظرة نلقيها على هذه اللغة — اي العربية — الغنى العظيم فى الكلمات ، والاتقان فى الشكل والليونة فى التركيب .

وقال الدكتور (ستنجاس) : ولنسائل انفسنا ماذا كان مصير هذه اللغة العربية ، لو لم يكن محمد. ولو لم يكن القرآن ؟ ونحن لا ننكر ان اللغة العربية انتجت قبل الاسلام الوانا عديدة من الشعر ، وهي غاية فى الحسن والرقة الا انها كانت كلها محفوظة فى اذهان الناس وغير مكتوبة ، زد على ذلك ان الشعر العربي ، ليس هو الادب كله .

وقال المستشرق (ارنست رينان) : من اغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة العربية القوية ، وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى ، عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التي فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الامم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال ، ولم يعرف لها فى كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ، لا نكاد نعلم من شأنها الا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تبارى ، ولا نعلم شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين من غير تدرج ، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة .

وقال (شينجلر) : ان اللغة العربية لعبت ، دورا اساسيا كوسيلة لنشر المعارف وآلة للتفكير ، فى خلال المرحلة التاريخية التي بدأت ، حين احتكر العرب — على حساب الرومان واليونان — طريق الهند .

وقال العلامة (فريتاج الالماني) : ان اللغة العربية ليست اغنى لغات العالم فحسب ، بل ان الذين نبغوا فى التأليف بها لا يكاد يأتي عليهم العد ،

---

(17) راجع كتاب (تاريخ آداب اللغة العربية) جرجي زيدان ج 1 ص 42 الطبعة الثالثة — القاهرة .
(18) مقدمة ابن خلدون ط/ دار التحرير للطبع والنشر ، 1966 م — القاهرة .
(19) انظر مجلة الازهر مارس 1959 مقال عباس العقاد .

وان اختلافنا عنهم فى الزمان والسجايا والاخلاق اقام بيننا ونحن الغرباء عن العربية — وبين ما الفـــوه حجابا لا يتبين ما وراءه الا بصعوبـــة .

وقال (ريتشرد كويتهيل) : انه لا يعقل ان تحـل اللغة الفرنسية او الانجليزية محل اللغة العربيـــة، وان شعبا له آداب غنيـــة منوعة كالآداب العربية ، ولغة مرنة ذات مادة تكاد لا تفنى ، لا يخون ماضيه ، ولا ينبذ ارثا اتصل اليه بعد قرون طويلـــة عن آبائه واجداده ، وان التباين الجزئي الذي يبدو بين اللهجات العربية ، لابد ان يزول .

وقال (وليم رول) : ان اللغة العربية لم تتقهقـر قط فيما مضى امام اي لغة من اللغات التي احتكـت بها ، وانها ستحافظ على كيانها فى المستقبل ، كمـا فعلت فى الماضي وان لها لينا ومرونة يمكنانها مـــن التكيف وفقا لمقتضيـــات العصـــر .

وقال (ماجليوت) : ان اللغة العربية لا تـزال حية حياة حقيقية ، وانها احدى ثلاث لغات استولت على سكان المعمورة استيلاء لم يحصل عليه غيرهـا الانجليزية والفرنسية ، وهي تخالف اختيها بأن زمان حدوثها معروف ، ولا يزيد سنها على قرون معدودة ، اما اللغة العربية فابتداؤها اقدم من كل تاريخ .

وقال ادوارد فان ديك : اللغة العربية من اكثر لغات الارض امتيازا، وهذا الامتياز من وجهين، الاول: من حيث ثروة معجمها ، والثاني من حيث استيعاب آدابهـا .

وقال (بروكلمان) : ولغة الشعر العربي هذه ، قد تميزت ميزة عظمى من الصور النحوية ، وقـــد بلغت من حيث دقة التعبير عن علاقات الاعـــــراب والنحو ، ذروة التطور فى اللغات السامية ، ومعجـم العربية اللغوي لا يجاريه معجم فى ثرائه ، انه نهـر تقوم على ارفاده منابع اللهجات الخاصة التي تنطق بها القبائل العربية .

وقـــال (لوي مسينيون) : فى حين ان اللغـة السريانية نقلت اجروميتها عن اللغة اليونانية نقـلا ، استطاعت لغة الضاد ان تشيد بناء فخما من الاعراب يضع امام الابصار مشهدا فلسفيا ذا اصالة وابتكار . وبفضل القـرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكـاد تعرفه اي لغة اخرى مـــن لغات الدنيـــا والمسلمون جميعا ، مؤمنون بأن العربية هي : وحدها اللسان الذي احل لهم ان يستعملوه فى صلاتهـــم ، وبهذا اكتسبت العربية منذ زمان طويل مكانة رفيعـة فاقت جميع اللغات الاخرى التـي تنطق بها شعـوب اسلاميـة .

وقال (رانكه) الفيلسوف الالماني : ان الثقافـة الانسانية تعتمد على لغتين كلاسيكيتين هما : العربية واللاتينية ، وبينمـا اشتقت اللغـات الغربية مـن اللاتينية ، فقد نفثت اللغة العربية فى الشرق روحـا فنية . ولا يمكن فهم المصنفـــات الادبية الفارسية او التركيـة بدون العودة الى الكلمات العربية وخاصة : ان وحي القرآن الكريم الذي لا يجارى ، يعد — بلا مراء — اساس العقيدة الانسانية والثقافة البشرية .

وبعد . هذه هي اللغة العربية المتدفقة . وهـذا هو مجمل آراء وشهـــادات المستشرقين وتلـك خصائصها كما عرفناها ، فما اعرقها لغة ، انهـــا لغة المسلميـن والاسلام .